



الإمام الغزالي

كان اللجوء إلى الله

خلاصاً لروحه ولنفسه

obeikandi.com

الإمام الغزالي

لا شك أن الإمام أبو حامد الغزالي شخصية من أبرز الشخصيات في الفكر الإسلامي . ألمَّ بعلوم الشرع والمنطق والفلسفة، كما ألم بكل علوم عصره، حتى أعده البعض من الفلاسفة لدراسته كل المذاهب الفلسفية في عصره . . وكتب عنها وهاجمها هجوم العارف بخبايا دقائقها كما فعل في كتابه «تهافت الفلاسفة» ، أو عرضه لهذه المذاهب في كتابه «المقاصد» ، واعتبره البعض الآخر أنه ليس فيلسوفاً رغم تعمقه في دراسة الفلسفة اليونانية، ولكنه مفكر كبير، أثر أن يتجه نحو التصوف الإسلامي . . فدرسه من جميع جوانبه، ثم مارسه ممارسة عملية وكان تصوفه يعتمد على الكتاب والسنة، أي أنه كان تصوفاً سنياً بعيداً عن شطحات التصوف الفلسفي من أعظم مفكري ومتصوفة الإسلام بشهادة كل من درس حياته وثقافته من مفكري الإسلام والغرب على السواء، وسواء أيدوا أفكاره أو عارضوها .

ولد الغزالي بطوس عام ٤٠٥هـ ، وقد عهده أحد الصوفية من أصدقاء أبيه، فقد أوصى والده هذا الصوفي على رعاية ولديه أحمد ومحمد . . وقام الرجل بما يجب أن يقوم به الرجل الصالح، فرعى ولدى صديقه، وقد تتلمذ الغزالي في صباه على أحمد الرذكاني، وأبي منصور الإسماعيلي في طوس، وبعدها توجه إلى نيسابور حيث تتلمذ على أبو المعالي الجويني الملقب بإمام الحرمين، وعندما توفي الإمام الجويني عام ٤٧٨هـ، خرج الإمام الغزالي وكان قد درس كل ما يجرى في عصره من معارف، خرج واتجه إلى العسكر، حيث أكرمه الوزير نظام الملك، وقد أعجب به نظام الملك عندما شهد مناظرة بين الغزالي وبعض العلماء، وهنا وجد أن الإمام الغزالي قد تفوق عليهم بالحجة والبرهان، وأيقن أنه عالم كبير، ومفكر كبير أيضاً، فعهد إليه بالتدريس بالمدرسة النظامية في بغداد. وعندما قدم بغداد أعجب الناس بعلمه وبلاغته وفصاحته، وقدرته الفائقة عن الحديث في مختلف قضايا

الشرع والفلسفة والكلام، قدرة فائقة، تبتد في نقده للفلسفة وما فيها من تهافت ولكن الإمام الغزالي رغم علمه وفقهه وتعمقه في علوم عصره ألت به محنة قاسية، محنة أحسها في أعماقه، واستبدت به، وأصيب بأزمة نفسية شديدة القسوة.

انتابته حالة من الشك، طلب من الله العلي العزيز أن ينقذه منها . . فاعتزل الناس، وتفرغ للتعبد والتأمل . . وهو يصور هذه الأزمة بقوله:

- ثم لاحظت أحوالي فإذا أنا منغمس في العلائق (التعلق بالدنيا) وقد أهدت بي من الجوانب، ولاحظت أعمالى وأحسنها التدريس، فإذا أنا مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة . . ثم تفكرت في نيتى في التدريس، فإذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت، فتيقنت أننى على شفا جرف هار، وأننى قد أشفيت على النار إن لم اشتغل بتلافي الأحوال.

فلم أزل أفكر فيه مدة، وأنا بعد على مقام الاختيار، أصمم العزم على الخروج من بغداد، ومفارقة تلك الأحوال يوماً، وأحل العزم يوماً، وأقدم فيه رجلاً، وأؤخر عنه أخرى، لا تصفو لى رغبة فى طلب الآخرة بكره إلا ويحمل جند الشهوة حملة فيفترها عشية، فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسلامها إلى المقام، ومنادى الإيمان ينادى الرحيل، الرحيل، فلم يبق من العمر إلا القليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخيل، ثم يعود الشيطان فيقول: هذه حالة عارضة وإياك أن تطاوعها فإنها سريعة الزوال.

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعى الآخرة قريباً من ستة أشهر . . وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار، إذ أقفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوماً واحداً تطيباً لقلوب المختلفين إلى، فكان لا ينطق لسانى بكلمة، ولا استطيعها البتة، وورثت هذه الفعلة فى اللسان حزناً فى القلب، بطل معه قوة الهضم وذم الطعام والشراب، فكان لا يستساغ لى شربة، ولا ينهضم لى لقمة، وتعدى الأمر إلى ضعف القوى حتى

قطع الأطباء طمعهم من العلاج وقالوا: هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج، فلا سبيل إليه بالعلاج، إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم.

ثم لما أحست بعجزى . . وسقط بالكلية اختياري، التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له».

ومن هنا نرى أن الغزالي في محنته تلك اتجه إلى الله تعالى لينقذه من هوه الشك، وقد شفى من ذلك عندما استجاب الله له، وتم له الشفاء.

وهو يصور ذلك بقوله:

- فأعضل هذا الداء ودام قريباً من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة - بحكم الحال، لا يحكم النطق والمقال، حتى شفى الله تعالى ذلك المرض، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال، ورجعت الضرورات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين، ولم يكن كل ذلك بتنظيم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة فقد ضيق رحمة الله الواسعة.

وهكذا أصبح الإمام الغزالي يتضمي فكره بنور الإيمان. ويرى أن الصوفية هم السالكون حقاً لطريق الله، فطريقهم هو خير الطرق.

يقول الإمام الغزالي:

« الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقتهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، وذلك لأن حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقبنة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به ».

وقد أقبل الغزالي بعد ذلك كما يقول الدكتور أبو الوفا التفتازاني على حياة من نوع جديد، وهي حياة الزهد والعبادة والتكامل الروحي والأخلاقى والتقرب إلى الله.

وفي سنة ٤٨٨ هـ خرج من بغداد وقصد إلى الحج، ولما انتهى من الحج ذهب إلى الشام سنة ٤٨٩ هـ، وقام بدمشق يدرس بزواية الجامع في الجانب الغربي منه، وانتقل إلى بيت المقدس، واجتهد في العبادة، وقيل أنه قدم مصر وأقام بالاسكندرية مدة ثم عاد إلى طوس واشتغل بالتأليف ويقول ابن خلكان أنه :

- ألتزم بالعود إلى نيسابور والتدريس بها بالمدرسة النظامية فأجاب إلى ذلك بعد تكرار المعاولات، ثم ترك ذلك وعاد إلى بيته في وطنه، واتخذ خانقاه (بيتا) للصوفية ومدرسة للمشتغلين بالعلم في جواره، ووزع أوقاته على وظائف الخير من ختم القرآن ومجالسة أهل القلوب، والعقود للتدريس إلى أن انتقل إلى ربه، وكان ذلك في يوم الاثنين رابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٠٥ هـ.

ومعروف أن الغزالي ألف الكثير من الكتب ومن أشهرها (إحياء علوم الدين) (والمنقذ من الضلال)، و(تهافت الفلاسفة)، و(منهاج العابدين)، و(كيمياء السعادة)، و(المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى)، و(الرسالة اللدنية)، وغير ذلك من المؤلفات التي ترجم الكثير منها إلى مختلف لغات العالم.

لقد كان الإمام الغزالي قامة عالية في الفكر الإسلامي، بكتبه التي أنارت الطريق لفهم الإسلام فهما صحيحاً . .

ويتصوفه المبني على الكتاب والسنة، وبمهاجمته للفلاسفة الذين يتصورون أن العقل وحده هو وسيلة المعرفة، بينما العقل له حدود يقف عندها .

أو على حد قول الإمام الراحل الدكتور عبدالحليم محمود وهو يتحدث عن الإمام الغزالي والفلسفة في كتابه (الفلسفة والحقيقة) . . نراه بعد أن يتحدث عن الفلسفة وموقف الإمام الغزالي منها يقول:

« . . على أنه إذا كان يلتمس لليونان العذر في معالجة هذا الموضوع لعدم وجود الوحي المعصوم الذي يهديهم الطريق، وينير لهم الجادة، فليس هناك من عذر للمسلمين وبين أيديهم رسالة السماء ممثلة (في القرآن) وهو ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود]، ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ

تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ [فصلت] وقد تكفل الله بحفظه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ [الحجر].

ليس للمسلم إذن - فيما يرى الإمام الغزالي - أن يحاول ابتداع عالم ما وراء الطبيعة ، أو اختراعه عقلياً ، ولكن المسلمين أخذوا فيما أخذ فيه اليونان ، واعتمدوا على العقل ، وألقوا قيادهم إليه ، فتفرقوا مذاهب شتى ، وطرائق قديداً ، وأصبح للفلسفة برغم هذا بريق يخطف الأبصار ، ولمعان كالسراب يجذب الكثيرين!

ويقول:

لابد إذن من التشمير عن ساعد الجدد ، وهدم هذا الزيف ، وإبطال هذا السحر ، حتى يعود الناس إلى الاعتصام بحبل الله وعدم التفرق . .

وحمل الإمام الغزالي على الأساس التي تقوم عليه الفلسفة وهو (العقل) حملة عنيفة ، وهجم عليه هجوماً قوياً ، ولم يفتقر قط عن مهاجمته منذ ألف كتابه القيم (تهافت الفلاسفة) محاولة موفقة كل التوفيق ، جريئة كل الجرأة ، طريفة كل الطرافة ، وما كان المقصد الأول والهدف الأساسى لهجومه هدم الآراء فى نفسها ، فبعضها صحيح ، موافق للدين ، ومع ذلك فقد هدم الإمام الغزالي ، المنهج العقلى الذى استندت إليه هدم الآراء: فخلود النفس مثلاً رأى يقول به الغزالي ، ويقول به الفلاسفة ، ولكن الإمام الغزالي حمل معوله على طريقة الفلاسفة فى إثبات خلود النفس وهدم أدلتهم ، وضرب بمعولة فيها فانهارت وتهافتت ، ومع ذلك فقد كان هو مؤمناً بهذا الخلود ، إنه لم يلتزم فى هذا الكتاب إلا تكدير مذهبهم ، والتعبير فى وجه أدلتهم بما يبين تهافتهم!

ومقصوده : تنبيه من حسن اعتقاده من الفلاسفة ، وظن أن مسالكهم نقية عن التناقض بيان وجوه تهافتهم .

ويقول : أنا لا أدخل فى الاعتراض عليهم إلا دخول مطالب منكر ، لا دخول مدع ، مثبت ، فأبطل عليهم ما اعتقدوه بالزامات مختلفة .

فالزمهم : تارة مذهب المعتزلة .

وثانية : مذاهب الكرامية .

وطورا : مذهب الواقية .

ولا أنهض ذابا عن مذهب مخصوص .

ويقول الأستاذ بلاسيوس :

بحق : إن الغزالي حين سمى كتابه (تهافت الفلاسفة) كان يريد أن يمثل لنا أن العقل الإنساني يبحث عن الحقيقة، ويريد الوصول إليها، كما يبحث البعوض عن ضوء النهار؛ فإذا أبصر شعاعاً يشبه نور الحقيقة انخدع به، فرمى بنفسه عليه وتهافت فيه!

ولكنه يخطئ مخدوعاً بأفيسة منطقية خاطئة، فيهلك كما يهلك البعوض .

فكان الغزالي يريد أن يقول :

أن الفلاسفة خدعوا بأشياء أسرعوا إليها بلا إعمال روية، فتهافتوا ، وهلكوا الهلاك الأبدى .

ويقول الدكتور عبدالحليم محمود أيضاً :

وفي كتاب التهافت هدم الإمام الغزالي عقلياً ما بناه الفلاسفة معتمدين على عقولهم ، وتهافتت الآراء تحت قلمه، ومن الحق أن تقول : إن أدلة الإمام الغزالي فيها من القوة ومن الرسوخ بحيث لا تقل من وجهة النظر العقلية - عن أدلة الفلاسفة العقلين وما من شك أن حملة الإمام الغزالي إنما كانت موجهة أولاً وبالذات إلى العقل .

والقضية المتنازع عليها هي قضية استطاعة العقل الوصول إلى المعرفة اليقينية في عالم (ما وراء الطبيعة) .

الإمام الغزالي ينكر، ويثبت إنكاره بالإخفاق المتتابع للفلاسفة، ويثبت أيضاً بهدم العقل لكل ما بناه العقل نفسه في هذا الميدان .

والتعارض إذن - والكلام مازال للدكتور عبدالحليم محمود بين الإمام الغزالي والفلاسفة إنما هو تعارض كلي ، ولذلك فإن المحاولات الكثيرة المتعددة لتصحيح آراء الفلاسفة أو لتصحيح بعضها، ونقد الإمام الغزالي في حملته على هذا الرأي أو ذاك، والانتصار لوجهة النظر الفلسفية في هذه أو تلك - إن ذلك كله غير مجد في القضية التي أثارها الإمام الغزالي، وهي محاولات جهل القائلون بها موضوع النزاع على حقيقته أو تجاهلوه!

ومن هنا كانت محاولة - ابن رشد - وهو أكبر المدافعين عن الفلاسفة تصويب آراء الفلاسفة في كتابه - تهافت التهافت - عملاً غير مفيد في حسم النزاع، إذ أن دائرة النزاع الحقيقية إنما هي الأساس الذي بنيت عليه الآراء وليست الآراء نفسها! والواقع أن فكرة الإمام الغزالي لا تزال للآن تتسم بالسهولة والوضوح والقوة: لقد أخفقت أيها العقليون، والدليل على إخفاقكم اختلافكم المستمر، هذا الاختلاف الذي أصبح وكأنه القاعدة والمبدأ العام.

ولعل من الجوانب الهامة في حياة الإمام الغزالي دعوته إلى الأخلاق، والأخلاق عنده هي تلك التي أمر بها الإسلام . . وأن على المسلم أن يراعى جانب الاعتدال ويتعدى عن الغلو والتطرف .

فالحير خير لأن الله أمرنا به .

والشر شر لأن الله نهانا عنه .

وهو يرى أن الإنسان لديه القدرة على تغيير أخلاقه ، وإلا لما أمرنا الشرع بأن نغير أخلاقنا لتلائم مع ما جاء في الشريعة الإسلامية، ولأن الرسول عليه الصلاة والسلام هو القائل:

- بعثت لأتمم مكارم الأخلاق .

ولكى تتمم مكارم الأخلاق لا بد من تعديلها وفقاً لتعاليم الدين الحنيف .

ولو كان من الصعوبة تغيير الأخلاق، وأن الإنسان مفطور على ما خلق عليه ما دعا الإسلام للتحلى بالأخلاق الفاضلة.

وكان يرى أن الحيوانات يمكن بالتدريب أن تغير من سلوكها حسب البيئة التي تعيش فيها، وما يعودها عليه الناس رغم أنها لا تمتلك العقل الذي يمتلكه البشر، وبالتالي فمن باب أولى أن الإنسان يمكنه أن يغير من سلوكياته حتى تتفق مع ما جاء به الشرع.

وعن طريق الرياضة والمجاهدة من الممكن أن نكبح جماح الغضب والشهوة، وأن نسلق طريقاً وسطاً، فالإنسان لا يمكن أن يقضى على غرائزه ولكن يمكن أن يهذبها حتى لا يصير عبداً لها.

والمطلوب أن يكون الإنسان معتدلاً في سلوكياته، أو على حد تعبير الدكتور عاطف العراقي وهو يستعرض فلسفة الغزالي الأخلاقية : أن المطلوب فيما يرى الغزالي هو أن نرد الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال ، بحيث لا يتغلب الغضب أو تغلب الشهوة على العقل ، بل يكون العقل هو الضابط لهما والغالب عليهما.

هذا يراه الغزالي ممكناً، بل إن هذا هو المراد بتغيير الخلق. صحيح أن الشهوة ربما تستولى على الإنسان بحيث لا يقوى عقله على إيقافها عند حد معين، ولكن بالرياضة تعود إلى حد الاعتدال، والمشاهدات والتجارب واستقراء أحوال الناس تدلنا على أننا قد نساق مع الشهوات أحياناً، ولكننا بعد فترة وبعد نوع من المجاهدة والرياضة نتمكن من وضع حدود وضوابط لشهواتنا ويقول أيضاً:

وإذا كان الغزالي قد تأثر بأرسطو في دعوته إلى الموقف الوسط، وقوله أن الفضيلة وسط بين إفراط وتفريط ، فإنه قد تأثر بالمصدر الإسلامى الذى يتمثل فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية أكثر من تأثره بأرسطو.

فهو مثلاً حين يبين لنا أن المطلوب هو الوسط فى الأخلاق دون الطرفين، يدلل على ذلك بأن السخاء خلق محمود شرعاً، وهو وسط بين طرفى التبذير والتقتير.

وقد أثنى الله تعالى على السخاء فقال :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧].
وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ
مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩].
ويقول الرسول ﷺ: « خير الأمور أوسطها ».

وإذا كان السخاء هو المطلوب لأنه يعد وسطاً بين طرفين غير مرغوب فيهما،
وهما التبذير والتقتير، فإن الشجاعة أيضاً مطلوبة، إذ أنها وسط بين الجبن والتهور،
والعفة مطلوبة، إذ أنها وسط بين الشره والجمود.

والاعتدال في الطعام أيضاً مطلوب، وليس المطلوب هو الشره أو الجوع..
يقول الله تعالى:

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١].

وهكذا في سائر الأخلاق، نجد أن المطلوب هو الوسط باستمرار، وهو الذي
يمثل موقف الاعتدال لا موقف الإفراط أو التفريط تماماً كما تقول أن الماء الفاتر لا حار
ولا بارد، بل هو وسط بين الحار والبارد.

الغزالي إذن كان بمنهجه ورؤيته فيلسوفاً ومصلحاً ومفكراً كبيراً، وقد انتشرت
كتبه في مختلف أنحاء العالم الإسلامي وترجمت إلى أكثر من لغة، وكان علماً بارزاً
من أعلام التجديد، والرؤية الإصلاحية.

ولقد عبر الإمام المراغي عن عبقرية الإمام الغزالي بقوله:

- إذا ذكر ابن سينا أو الفرابي خطر بالبال فيلسوفان عظيمان وإذا ذكر ابن عربي
خطر رجل صوفي له في التصوف آراء لها خطورتها.

وإذا ذكر البخاري ومسلم وأحمد خطر بالبال رجال لهم أقدارهم في الحفظ
والصدق والأمانة والدقة ومعرفة الرجال.

أما إذا ذكر الغزالي فقد تشعبت النواحي ، ولم يخطر بالبال رجل واحد . بل
خطر بالبال رجال معدودون لكل واحد قيمته وقدرته .

يخطر بالبال الغزالي الأصولي الماهر .

والغزالي الفقيه الحر .

والغزالي إمام أهل السنة وحمى حماها .

والغزالي الاجتماعي الخبير بأحوال العالم ، وخفيات الضمائر ومكنونات
القلوب .

والغزالي الفيلسوف . . أو الذي ناهض الفلسفة وكشف عما فيها من زخرف
وزيف .

والغزالي المربي .

والغزالي الصوفي الزاهد .

وإن شئت فقل يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره .

و . . ما أكثر ما يمكن أن يكتب ويقال عن الإمام الغزالي الذي كان فكره علامة
مضيئة لعصره ، وما بعد عصره من عصور .